خصوصيات النقد ما قبل الاسلام

لاحظنا في لقاءاتنا الحضورية أن كل مافي حياة العربي في لجاهلية ارتبط بالصحراء ، منها استمد نظام حياته وأشعاره، فحتى هذا الشكل العمودي للقصيدة يعد تعبيرا عن نمط معيشته وهو تحديدا ماناقشناه في موضوع المسؤولية التاريخية للأشكال الأدبية عند الناقد الفرنسي رولان بارت Roland Barthes .

ففي تنقلاته طلبا للرزق ظهرت أشعاره مجزأة غير مكتملة وفي ظعنه غير مقيم جاءت المقطوعات الشعرية بناء على حدث الظعن

بناء على فكرة الشعر المجزأ المبني وفق مقطوعات جاء النقد أيضا عبارة عن أحكام جزئية متفرقة غير معللة ،لاتخضع لمبدأ علمي واضح، تأثرية ارتبطت بلحظة الشعر أكثر من ارتباطها بفكر مؤسس ممنهج.

إن المتتبع لحركة النقد الأدبي في أخريات عصر ماقبل الإسلام ،يلاحظ أن ميادين نشاطه تتمثل في أسواق العرب والمجالس الأدبية العامة، ومن صور النقد ماتناول اللفظ أو الصياغة ، الأمر الذي يوضح قضية الوقوف عند الجزئيات في النقد العربي القديم ، من ذلك مايروى أن طرفة بن العبد سمع المسيب بن علس يقول:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعيرية مكدم

فقال له طرفة:استنوق الجمل، أي أنك وصفت الجمل بما توصف به النوق، ذلك أن الصيعيرية سمة حمراء تعلق في عنق الناقة مما قلل من جودة شعره لعدم معرفته بمعاني الألفاظ ومواضع استعمالها.

نجد.أمثلة أخرى توضح حقيقة التفكير النقدي العربي في عصر ماقبل الإسلام من خلال احتكام علقمة الفحل وامرئ القيس إلى أم جندب لتحكم بينهما ، فطلبت منهما قول شعر في وصف الخيل على روي واحد وقافية واحدة ،فقال امرئ القيس:

خليلي مرا بي على أم جندب لتقضي حاجات الفؤاد المعذب

وقال علقمة:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل هذا التجني

فقالت لإمرئ القيس علقمة أشعر منك ،قال وكيف ذاك ؟

قالت :لأنك قلت :

فاللسوط ألهوب والساق درة وللزجر منه وقع أعوج منعب

لقد أجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك ،وقال علقمة:

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائحة المتحلب

فأدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه، لم يضربه بسوط ولا مراه بساق ولازجره ،قال:ماهو بأشعر مني،ولكنك له وامقة ،فطلقها وخلف عليها علقمة فسمي بذلك الفحل.

يعد اشتراط أم جندب للحكم الموضوع الواحد والروي الواحد والقافية الواحدة ، شكلا من أشكال الموازنة التي ابتعدت فيها عن النقد المبني على الذوق الفطري الخالي من التعليل

كما يمكن أن يقرأ حدث التطليق بين ام جند وامرئ القيس كون الفحولة الشعرية في عصر ماقبل الإسلام كانت أمرا مصيريا يحسم حتى العلاقات بين الأفراد..

يعد مبدأ العرف أيضا أمرا حاسما فأم جندب قد طردت امرئ القيس من مملكة الشعر كونه خرج عن أعراف القبيلة التي ترى في الفرس العربي لبيبا بالإشارة يفهم في حين تعامل معه امرئ القيس بالزجر والتعنيف..

في مثال آخر يتضح لنا مسار النقد الذي قام على إصدار الأحكام والإنفعال، فقد أخبرنا صاحب الأغاني ،قال :حدثني عبد الملك بن قريب _الأصمعي_قال:كان يضرب للنابغة قبة من أدم حمراء بسوق عكاظ ،فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، قال أول من أنشده الخنساء بنت عمر الشريد

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقال والله لولا أن أبا بصير _الأعشى _أنشدني آنفا لقلت :إنك أشعر الجن والإنس ،فقام حسان فقال :والله لأنا أشعر منك ومن أبيك !فقال له النابغة :ياابن أخي ،أنت لاتحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

:قال فخنس حسان لقوله

يتضح مما سبق أن الحكم النقدي في هذا المقام غير معلل، لايستند إلى أسس واضحة، يبدو انفعاليا تأثريا.

غير أن القارئ المتمعن في حيثيات هذا النص يمكنه أن يستنتج مجموعة من القضايا:

أن النابغة اعترف للخنساء بالجودة الشعرية دون الفحولة الشعرية ، كونها أشعر الجن والإنس ،فهي شاعرة مجيدة لكن لايمكنها أن تكون ضمن الشعراء الفحول ، فقوله لولا أن أبا بصير جاءني آنفا يشي بقضية الفحولة الشعرية التي تعد سمة ذكورية لايمكن المؤنث حيازتها.

ثم إن قوله :ياابن أخي أنت لاتحسن أن تقول ،كلام يحيلنا إلى مسألة النموذج الشعري ،فالمنظومة الشعرية العربية مبنية على فكرة النموذج الشعري المحدد مسبقا ، إذ على الشاعر أن يقول وفق منظومة شعرية محددة ، تتحدد فحولته وإجادته الشعرية وفقا لها..

ومن أمثلة أحكام العرب القدامى على الشعر أحكاما مطلقة دون تعليل لقيامها على التأثر والإنفعال ، الحكم على بعض القصائد بأنها بالغة منزلة عليا في الجودة بالقياس إلى غيرها ، فقد كانوا يتخيرون قصائد بعينها يخلعون عليها ألقابا مطلقة في الحكم دون تعليل مؤسس.

روى أبو عمر الشيباني أن عمرو بن الحارث الغساني أنشده علقمة بن عبدة قصيدة :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

:وأنشده النابغة

كليني لهم ياأميمة ناصب وليل أقاسيه بطيئ الكواكب

وأنشده حسان قصيدته:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبضيع فحومل

ففضل حسانا عليهما ودعا قصيدته البتارة ، بمعنى أنها بترت غيرها من القصائد بحضورها.

نستنتج مما سبق أن الفكر النقدي في عصر ماقبل الإسلام لم يتجاوز هذا الحد الفطري التأثري الذي يقوم على إصدار أحكام جزئية أو مطلقة غير معللة.